٩٢

(الإمام المتوكل على اللَّه إسْماعيل ابن الإمام القاسِم بن مُحمَّد)[١]

رضي اللَّه عنهما. وسيأتي تمام نسبه في ترجمة أخيه الحَسَن إن شاء اللَّه. ولد في نصف شعبان سنة ١٠١٩ تسع عشرة وألف في شهارة، ونشأ بها. وكان كامل الخلق، معتدل القامة، أسمر اللون، عظيم اللحية، أشعر الذراعين، قوي الحركة كثير التبسم، حسن الخلق. قرأ على جماعة من أعيان علماء عصره في الفقه وسائر الفنون، فبرع في الفقه، وفاق على علماء عصره في ذلك، وأقرَّ له الكبير منهم والصغير، ورجعوا إليه في المعضلات. وشارك في بقية الفنون مشاركة قوية. وكان يقرئ فيها أعيان علماء عصره، وصنّف مصنفات، منها: (العقيدة الصحيحة) وشرحها (المسائل المرتضاة إلى جميع القضاة)، وحاشية على «منهاج» الإمام المهدي في الأصول، بلغ فيها إلى بعضه. ورسالة في «الطلاق للثلاث». وفي المحايرة في إبطال الدور، وفي الخلع، وفيما وقع إهداره في أيام البغاة، وفيما يؤخذ من الجبايات. وكان واسع الحلم، قوي الصبر، شديد الإغضاء. ولما اشتهرت فضائله وتمَّت مناقبه، دعا إلى نفسه بعد موت أخيه الإمام المؤيد باللَّه مُحمَّد بن القاسِم في يوم الأحد سلخ رجب سنة ١٠٥٤ أربع وخمسين وألف. وقد كان تقدَّمه صنوه أحمد بن القاسِم، ودعا إلى نفسه، لأنه كان عند المؤيد باللَّه في شهارة. فَقوَّى عزمه على الدعوة القاضي أحمد بن سَعْد الدين المتقدم ذكره فدعا. وتأخرت دعوة المتوكل لأنه كان عند موت أخيه في ضوران، وبين المحلين مسافة. ولم يعدّ دعوة أخيه أحمد مانعةً من دعوته، لكونه لم يكن جامعاً لشروط الإمامة المعتبرة في مذهبهما التي منها الاجتهاد، ولم يكن أحمد بهذه المنزلة في العلم. ولما ظهرت دعوة المتوكل على اللَّه تلقاها الناس بالقبول، ودخلوا تحت طاعته. وقد كان أيضاً دعا ابن أخيه مُحمَّد بن الحَسَن بن القاسِم في اليمن، ولكنه لما بلغته دعوة عمّه إسْماعيل ترك. ودعا في الشام (بلاد صعدة) السيد إبراهيم بن مُحمَّد بن أحمد بن عِزّ الدين بن عليّ بن الحُسَين ابن الإمام عزّ الدين بن الحَسَن، واستمر أحمد بن القاسِم على دعوته، وبعث العساكر إلى الجهات المتفرقة لحفظ الأطراف من غير إيذان بحربٍ، ولكنه ما زال أمره يتناقص، ولا سيَّما بعد مبايعة السيدين الأعظمين مُحمَّد بن الحَسَن بن القاسِم، وأخيه أحمد بن الحَسَن للمتوكل على اللَّه فإنه ضعف جانب أحمد غاية الضعف، ولم يتقاعد عن القيام بالدعوة وتجهيز الجيوش. ووقعت حروب قتل فيها جماعة قليلة، ثم ارتحل

(١) ترجمته في: الأعلام: ١/ ٣٢٢؛ معجم المؤلفين: ٢/ ٢٨٧؛ هدية العارفين: ١/ ٢١٨؛ إيضاح المكنون: ٢/ ١١٦.

أحمد إلى عمران، ثم إلى ثلا، وأحيط به فيها، فجرى الصلح على أن يقع الاجتماع بين الأخوين، ومن غلب الآخر في العلم استقل بالإمامة، فظهر فضل صاحب الترجمة، فبايعه أخوه أحمد، ثم بايعه الناس الذين معه، وسكنت الأمور. وأما السيد إبراهيم فما زال أمره يضطرب، فتارة يبايع، وتارة يظهر بقاءه على دعوته، وتكرّر منه ذلك، ولم يكن معه ما يعول به من جند ولا أتباع، وصارت اليمن جميعها تحت طاعة صاحب الترجمة، وصفا له الوقت، وقهر الأضداد، ولم يبق له مخالف. وكان أكبر رؤساء دولته ابن أخيه مُحمَّد بن الحَسَن بن القاسِم، فإنه كان يقبض حواصل أحسن البلاد. ثم بعده أحمد بن الحَسَن بن القاسِم، وكان مجاهداً، ويبعث به الإمام إلى الأقطار النائية للغزو، فيظفر ويعود، وقد دوّخ ما بعثه إليه كما فعل لما بعثه المتوكل إلى يافع، فإنه استولى عليها جميعاً وقهر سلاطينها، وفتح حصونها، ودخلوا تحت طاعته. وكذلك فعل مرّة بعد مرّة، ثم وجهه إلى عدن، ولحج، وأبين، ففعل فيها كما فعل في يافع. وكذلك توجَّه إلى حضرموت فافتتحها بعد فراغه من افتتاح يافع، وأذعنت هذه البلاد كلها بالطاعة لصاحب الترجمة. ولم ير الناس أحسن من دولته في الأمن والدعة والخصب والبركة. وما زالت الرعايا معه في نعمة، والبلاد جميعها مجبورة كثيرة الخيرات. وكثرت أموال الرعايا وكل أحد آمن على ما في يده لعلمه بأن الإمام سيمنعه عدله عن أن يتعرض لشيء من ماله، وغير الإمام تمنعه هيبة الإمام عن الإقدام إلى شيء من الحرام. وقد كان الناس حديثي عهد بجور الأتراك، قد نهكتهم الحرب الواقعة بينهم وبينهم على طول أيامها. قال السيد عَامِر بن مُحمَّد بن عبد اللَّه بن عَامِر الشهيد في (بغية المريد) أن الإمام المترجم له مات ومعه من أنواع الطيب ما قيمته مائة ألف أوقية فضة، وذكر أنه خلف من النقد والعروض ما لا يأتي عليه الحصر، وخلف من الطعام ثلاثمائة ألف قدح صنعاني. هذا معنى ما ذكره. والإمام ما زال يتنقل من مكان إلى مكان، ومن بلد إلى بلد، وصحبته أكابر العلماء وطلبة العلم يأخذون عنه ما يريدون، وهو يبذل لهم ذلك ويفيض عليهم من بيوت الأموال ما يحتاجون إليه. وكان الغالب بقاؤه في ضوران، وما زال على هذا الحال الجميل والعيش الحسن. وقد دخل تحت طاعته السلاطين من يافع وحضرموت وعدن وظفار، وغير هذه الديار، فمنهم من وفد راغباً، ومنهم من وفد راهباً، ومنهم من وصل أسيراً وجيوش الإمام تقاتل في الأطراف دائماً. ومن جملة من والى الإمام وتابعه الشريف صاحب مكة. واستمر على حاله الجميل حتى (توفي) في ليلة الجمعة خامس جمادى الآخرة سنة ١٠٨٧ سبع وثمانين وألف، وله جوابات مسائل سأله بها علماء عصره، وهي كثيرة جدّاً متفرقّة بأيدي الناس، لو جمعت لجاءت مجلّداً. وللناس عليها اعتماد كبير لا سيما الحكام.